كامل كيلاني

قصص علميّة

جبّارة الغابة

الطبعة الحادية عشرة



دار المعارف

تصميم الغلاف : **محمد أبو طالب**

رقم الإيداع	١٩٩٧/١٣٦٤٥
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5518-I

٧/٩٧/١٠٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

مقدمة

وَلَدِى رَشادُ :

لقد أعجبَك هٰذا اللَّوْنُ المُشْرِقُ من القَصَصِ العلميّ الرائع السَّهلِ ، وأعجبنى أننى وُفِّقْتُ إلى إعجابِك وإرضائك ، وتحبيبِ العلمِ إلى نفسِك ، وتبديلِ زُهدِك فيه : حُبًّا له ، وشغفًا به .

وقد رأيتُ : كيف رحَّبْتَ بتلكَ القِصَص ، التى قَبَستُها لك فى الأجزاءِ السابِقَةِ من هٰذه المجموعةِ المختارَةِ ، وسرَّنى أنك أقبلتَ على قراءتِها ودرسِها وتلخيصها ، ولم تترُكْ منها شاردةً ولا واردةً إلا تعرَّفْتَها ، وأحطْتَ بها علمًا ؛ فحمِدْتُ هٰـذه النتيجةَ السارّةَ التى كنتُ أُقدِّرُها لهٰذه القِصَص الشائقَةِ .

ولقد كنتُ أرَى نُفُورَكَ من تلك الكتبِ العلميَّةِ الجافةِ ، التى طالَما زَهِدْنا فى قراءتِها — حين كنا أطفالًا — فلا أَلُومُك فى هٰذا النُّفُورِ ، بل أُقرُّك على رأيِك ، وألتمسُ لك وُجُوهَ المعاذيرِ ؛ فإنها لم تُكتبْ — على الحقيقة -

لك ، ولم تُؤلَّفْ ليقرأها أمثالك ؛ فهى تَعرِضُ أمامَكَ جَمْهَرةً مُضْطَرِبَةً مُهَوَّشَةً من أخلاطِ المعارفِ ، وأشتاتِ العُلومِ ، وتَزْحَمُ رأسَك النضَّ بها فى غَيْرِ تَشْوِيقٍ وَلا تَرْغيبٍ ؛ فتُبَغِّضُ إليك الثقافةَ ، وتُنَفِّرُكَ مِنَ المَعرِفَةِ

أمَّا الآنَ ، فقدْ تجلَّتْ لك الحقائقُ العِلْمِيَّةُ فى أجملِ صُورَةٍ بيانيَّةٍ ، وَأبرعِ أسلوبٍ قصَصِيٍّ ، ولبستْ ثوْبًا خياليًا أخَّاذًا ، يَمْلأُ نفسَك بهجةً وحُبورًا . فلا عجبَ إذا أقبلتَ على قراءتِها وفهمِها ، ورُحْتَ تتعجَّلُنى فى طلبِ المَزيدِ ، وتتنجَّزُنى الوعدَ فى إلحاحٍ شديدٍ .

ولن أُمْطِلَ وعدى لك ؛ فقد أخذتُ نفسى بتحقيقِ رجائك ، وتَوَخِّى رغباتِك ، وتحبيبِ المعارفِ إليك ، ما استطعتُ إلى ذلك سبيلًا

كامل كيلانى

١ — حَديثُ النَّسيمِ

مرَّ نَسيمُ الصباحِ عَلَى الأزهارِ البهيجةِ النَّاضرَةِ التى تَزدانُ بها الأجَمَةُ ، وَهَمَسَ النسيمُ فى أثناء خَطْرَتِهِ (فى خِلالِ مُرورِهِ) :

« يا لَهُ من نَبإٍ هائلٍ ! يا لَهُ من نَبإٍ هائلٍ ! »

فانزَعجتِ الزَّهَراتُ ، وَقالت مدهوشةً : « أىَّ نَبإٍ تَحْمِلُ ، يا نسيمَ الصباحِ ؟ »

فَهَمَسَ النسيمُ البليلُ (المُحَمَّلُ بالنَّدَى ، المُبَلَّلُ بِهِ) :

« لقدْ هَلَكتْ جَبَّارَةُ الغابةِ ! لقَدْ هلكتْ جَبَّارةُ الغابةِ ! »

فقالتْ زَهْرةُ الأُقْحُوانِ ، وَهى أعلَى أزهار الغَيْضة ارْتفاعًا (والغَيْضَة : مُجْتَمعُ الشَّجَرِ) :

« أتعني: السِّنْديانةَ المَجُوزَ ؟ وَكيف هَلَكتْ هٰذهِ الجَبَّارَةُ ، وهِى مِثالُ القُوَّةِ والصَّلابةِ ؟ هٰذا لا يكونُ ؛ فإنَّ العمالِقَةَ الأشِدَّاء لا يَمُوتونَ . وَما أحْسَبُكَ إلَّا واهِمًا مُخْطِئًا فى حُسْبانِكَ ، يا سَيِّدِى النسيمَ .

وكيف تريدُنا عَلَى أن نُصَدِّقَ هٰذا النَّبأَ ، وَقَدْ كانتْ — إلى أمْسِ —

شامِخَةً ، ذاهبَةً فى الفضاء ، كأنّها العِملاقُ العظيمُ ، أوِ الماردُ الْجَبَّار الْهائِلُ ، كما حَدَّثَتْنِي صَديقتِي القُنْبَرَةُ ، التى كانتْ تغرِّدُ عَلى أَفْنانِها (تُغَنِّى عَلى أَغصانِها) فى اليَوْمِ السابِقِ ؟ »

فَجَمْجَمَ النَّسيمُ (تَكلَّمَ خافِتَ الصَّوْتِ) ، وَهُوَ يَتْمَعِدُ :

« لَقد ماتتْ جَبَّارَةُ الغابةِ ، ولَقِيَتْ حَتْفَها (مَوْتَها) ليلةَ أَمْسِ . نَعمْ هَلَكتِ الْجَبَّارَةُ ، وقتلَتْها العاصِفةُ قتْلًا ! »

٢ — حُزْنُ الشَّراشيرِ

وكانَ شُرْشُورانِ يَمْرَحانِ عَلى حافَةِ الْأَجَمَةِ ، فَسَمِعا هَمْسَ النَّسيمِ وأَصغَيا إلى كُلِّ ما قالهُ ؛ فتملَّكهُما الدهَشُ وَالعَجَبُ .

فقالت « أُمُّ شَرْشَرَةَ » :

« أَتُصَدِّقُ هٰذا النَّبأَ الْهائلَ ! إِنِّى لا أَسْتطيعُ تَصْديقَهُ ! »

فأَجابَها « أَبو بَرَاقِشَ » :

« ما أَظُنُّهُ كاذِبًا فيما قالَ ؛ فَلْنَطِرْ إليها لِنَتَثبَّتَ . »

فأَقرَّتْهُ « أُمُّ شَرْشَرَةَ » عَلى رَأْيِهِ .



ثمّ طار الشُّرْشُوران — منْ فَورِهما (تَوًّا) — وأخْفقا (ضَربا بأجْنِحَتِهما) ، وسُرعان ما وَصلا إلى شَجرةِ البَلُّوطِ . وَثمَّ (هُنَاكَ) أيْقَنا أنَّ النسيمَ لَمْ يَكُنْ مَخْدوعًا فيما عرَفَهُ ، ولا كاذبًا فيما قرَّرهُ .

لَقَدْ رَأى الشُّرْشوران مَصْرَعَ جَبَّارةِ الغـابةِ ، وَحزنَتهُما تلكَ الخاتِمةُ المُؤْلِمةُ ، وَهالَهُما (أخافَهُما) أن يَرَيا جِسمَها الكبيرَ مطرُوحًا علَى الأعْشابِ ، وَقدِ اقتَلَعتِ العاصفةُ جُذورَها منَ الأرْضِ ، وحطَّمتْ أغْصانَها بِلا رَحْمَةٍ .

ونظرَ الشُّرْشوران إلى شجرةِ البَلُّوطِ بعُيُونٍ دامعةٍ .

وقالت « أُمُّ شَرْشَرةَ » ، بصوتٍ خافِتٍ :

« ألا ترى هـذه النَّكبةَ الهائلةَ ؟ لا جَرَم (حَقًّا) أنَّها خَسارةٌ فادِحةٌ ، يا أبا براقِشَ . وسيحزَنُ عليهـا إخوتُنا الشَّراشِيرُ ، وغَيْرُها من الطُّيور . »

فأجابها « أبو براقِشَ » ، وقد اشتدَّ به الأسَى والحزنُ :

« صدقتِ — يا أُمَّ شَرْشَرَةَ — فهى نَكْبَةٌ جسيمةٌ ، وخَسـارةٌ



لا تُعوَّضُ . لقد انقضى اليومَ عهدٌ (انتهى زمنٌ) سعيدٌ ، طالما نَعِمْنا بهِ بين أغصانِ هذه الجبَّارةِ العجوزِ . ولن نَظفرَ — بعد الآنَ — بما نعِمْنا به فى ظِلالها الوارفةِ المبسوطَةِ من المرَحِ والزَّقْزَقةِ ، وتمثيل أدوار الاستِخْفاء ، وما إلى ذٰلكِ من الألعاب البهيجةِ .

وما أشدَّ حُزنَنا لِمَصْرعكِ ، وما أشدَّ ألَمَنا لوَداعِكِ ، أيتها الشجرةُ العزيزةُ علينا ! فلقد طالما خَفَقْنا (طِرْنا) وأوَيْنا إليكِ (اتَّخذناكِ لنا مَنْزِلًا) ؛ فآويتنا ، كما آوَيْتِ غيرَنا من كِرام الطَّير ، وأنقَذْتِ أرواحَنا وأرْواحَهُمْ من الهلاكِ . وكم خبَأتْ أغصانُكِ الكبيرةُ من طُيورٍ كانَتْ تلوذُ (تَلْجأُ وتَخْتَبِى) بك ، كلما رأت « أبا الأشْعَبِ » : ذٰلكِ البازِىَ الشَّرِسَ ، وهو يتلمَّسُها (يَتَطلَّبُها مرَّة بعد أُخرى) جاهدًا فى بَحْثِهِ عنها ؛ فلا يَظفَرُ منها بِطائِلٍ (لا يَرْجِعُ بفائدةٍ) . وكم وقَيْتِها غائِلَةَ العِقْبانِ ! ولستُ أنْسَى تِلكِ الأُسْرَةَ من العِقْبانِ الفتّاكةِ (المُفترِسَةِ) ، حين قدمَ الغَرَنُ : ربُّ تلكِ الأسرةِ . ولقد سَمِعْتُهُ يُحادِثُ زَوجَهُ : « القَنْواء » وولدَهُ « النّاهِضَ » ، وقد تمَلَّكهُ الغضَبُ ، لِأنَّهُ لم يعثُرْ عَلَى طائرٍ واحدٍ يأكلهُ . »

فقالت « أُمُّ شرشَرَةَ » : « وهل نسيتَ أُسرةَ النُّسورِ الّتى وفدَتْ علينا – مُنذ أسابيعَ – وقد ضاعَ تعبُ « الضَّريكِ » : رَبِّ تلكَ الأُسرةِ، وزوجِه « الْمِتْرَةِ » وولدِها « الْهَيْثَمِ » ، بلا طائلٍ (بِغَيْرِ فائدةٍ) ؛ لأنَّ الطُّيورَ قد اخْتبأَتْ بين أغصانِ هٰذه الجبّارة ، فلم تقَعْ عليها عَيْنُ كائنٍ كان ؟ »

فقال « أَبُو بَرَاقِشَ » : « كَلّا ، لم أَنْسَ شيئًا من هٰـذه الذِّكريات . وكم لهٰذه الشَّجرةِ العزيزة علينا من مَآثِرَ (مَكْرُماتٍ) وأيادٍ لا تُحْصَى (نِعَمٍ لا تُعَدُّ) ! »

فقالت « أُمُّ شَرْشَرَةَ » : « لقد كنت أحْسَبُ هٰذه الجبَّارةَ لا تَمُوتُ ! »

فقال « أَبُو بَرَاقِشَ » : لَمْ يَكُنْ يدورُ بخَلَدِى (يَمُرُّ ببالى) قطُّ أنَّ هٰذه الجبّارةَ تَهْلِكُ (تَمُوتُ) ، لأنَّها مِثالُ القُوَّة والصَّلابة . ولا شَكَّ أنَّ مَصْرَعَها (مَقْتَلَها) سَيَحْزُنُ أصدقاءنا ، حين يَعْلمُونَ نبأَهُ الْهائِلَ (خَبَرَهُ الْمُحْزِنَ) . والآن – وقد انقضى هٰـذا العَهْدُ السَّعيدُ ، وذَهَبَتْ تلكَ الأيَّامُ الهنيئةُ إلى غير رجعةٍ – أجِدُنِى مُتَألِّمًا حَزِينًا ، وأنا أسأَلُ نفسى : تُرَى كيفَ تعيشُ السَّناجيبُ بعد هٰذا اليومِ ؟ »

لعلكَ رأيتَ السِّنجابَ — أيُّها القارئُ الصغير — في حديقةِ الحيوان ، ولعلكَ لا تزالُ تذكرُ ذلكَ الحيوانَ الطَّويلَ الذَّنَب ، الحسَنَ الشَّعر ، الَّذي يُشبَّهُ بِلَوْنِهِ ، فيقال : اللَّوْن السِّنجابيُّ !

واستأنَفَ « أبو براقِشَ » قائلًا : « تُرَى كيفَ تظفرُ هٰذه السَّناجيبُ بطعامِها في فصل الشِّتاء ، وقد حُرِمَتِ الْقَسْطَلَ — ثَمَرَ هٰذه الشَّجرةِ النَّافعةِ — الَّذي هو أشهَى ثِمارٍ في الْأجَمَةِ ؟ »

فقالَت « أمُّ شَرْشَرَةَ » ، وهِيَ تَقفِزُ حول الشَّجَرةِ الهالِكةِ : « خبِّرْني — يا أبا بَراقِشَ — أتُراهُمْ يَتركونَ هٰذه الجبَّارةَ الصريعَ ، طُول فصل الشِّتاء ، في هٰذا المَكانِ ؟ »

فأجابها « أبُو بَراقِشَ » : « كَلَّا يا عزيزتي ؛ فإِنَّ رِجالَ القَرْيَةِ سَيَحْضُرُونَ للإحتطابِ (اقتِطاعِ الحَطَبِ) ، بعد قليلٍ من الزَّمن ، وَلَنْ يَتْرُكُوها حَيْثُ هِيَ ؛ لأنَّ خَشَبَ البَلُّوطِ عظيمُ الفائدة ، جليلُ النَّفع للنَّاس . وقد حدثتني أختي « أمُّ بِرْقِشَ » أن النَّاسَ يَبْنُون من البَلُّوط بُيُوتًا كبيرةً ، تَمْشي عَلَى سَطْحِ الماء ، يُسَمُّونَها : سُفُنًا وَبَواخِرَ وَمَراكِبَ . »

فصاحت «أُم شَرْشَرَة» بصوتٍ حَزِين :

«يالَكِ من جبَّارةٍ تاعسةٍ ، أيّتها الشجرةُ العجوزُ . وَلَسْتُ أشُكُّ فى أنَّ لكِ تاريخاً حافلًا . فَمَنْ لنا بأنْ نتَعَرَّفَ قِصّتَكِ ؟ »

فقال «أبو بَراقِشَ» : «صَدَقْتِ – يا زَوْجِيَ العزيزةَ – فإنِّى شَديدُ الشَّوْقِ إلى تعرُّفِ قصَّةِ هٰذه الجَبّارَةِ الصريعِ . »

فقالت «أُمُّ شَرْشَرَةَ» : «فَلْنَذْهَبْ إلَى «أبى الْخُطَّافِ» ، أعْنِى : ذٰلكَ الْحِدأَةَ الذكِيَّ ، لِنتَعَرَّفَ منهُ قِصَّةَ الْجَبَّارةِ الْهالِكةِ . »

فقال لهـا «أبو براقش» : «كلَّا يا عزيزتى ، بل نذهبُ إلى «ابنِ دَأْيةَ» : ذٰلِكِ العَقْعَقِ الْهَرِمِ (الْغُرابِ الْمُسِنِّ) ؛ ليَقُصَّ علينا أنباء الشجرَةِ . فهو – وَحْدهُ – خَبيرٌ بتاريخِها كُلِّهِ . »

فقالت «أُمُّ شَرْشَرَةَ» : «أتَظنُّه أعْ‍َ‍رَفَ مِنْ «أبى الْخُطَّاف» بتاريخِها ؟ »

فقال «أبو بَراقِشَ» : «ليس فى هٰذا شَكٌّ ، فهو يَعْرِف كلَّ شَىْءٍ . »

فقالت «أُمُّ شَرْشَرَةَ» : «هلُمَّ (تَعالَ) ، فَلْنَذْهَبْ إليه جميعًا . »

٣ — « ابنُ دَأْيَةَ »

كان « ابن دَأْيَةَ » عَقْعقاً ذكيًا ، طاعِنًا فى السِّنِّ . وكان بعض الناسِ يُطْلِقُ عليـــهِ اسْمَ « الغُرابِ النُّوحِيِّ » — لكثرةِ نُواحِهِ (بكائِهِ) — كما كان الآخرونَ يُطْلِقونَ عليهِ اسْمَ : المقْمَقِ ؛ لأنه يُكْثِرُ من النُّطْقِ بكلمَةِ : « عَقْ — عَقْ » .

وكان « ابنُ دَأْيَةَ » هٰـذا شَيْخًا مُسِنًّا — كما قُلنا — فأَصبَحَ — لِضَعْفِهِ — لا يكادُ يَبْرَحُ وَكْرَهُ (قلَّما يُفارِقُ عُشَّهُ) الذى اختارهُ لنفسِهِ ، فى رأسِ شَجَرَةٍ باسِقةٍ (عاليةٍ) مِن أشْجارِ الحُورِ . وقدْ ضَعُفَ البصَرُ « ابنِ دأْيَةَ » مِن الـكِبَرِ ، وانْتابَتْهُ أعْراضُ الشيْخُوخة ؛ فأَصْبحَ لا يكادُ يُبصرُ شيئًا ، وتساقَطَ رِيشُهُ فلم يَبْقَ منهُ إلا القليلُ .

ولمّا وَصلَ الشُّرْشورانِ إلى وَكْرِ المَقْمَقِ ، سَلَّما عليه ؛ فرَدَّ عليهما التحيَّةَ ، بعد أَنْ عَرَفَ صَوْتَيْهِما . ثُمَّ قال لهُما بصوْتِهِ الأَبَحِّ (الغَليظ الذى فيهِ بُحَّةٌ) : « أَهْلًا وَسَهلًا بِكُما ، أَيُّها العَزيزانِ الصغيرانِ ! »

فقالا لَهُ : « سُعِدَ يوْمُكَ ، يا عَمَّنا العزيزَ . »



وإنما أطلقا عليهِ اسْمَ : ﴿ العَمِّ ﴾ — ولَمْ يَكُنْ لَهُما عَمًّا — لأن طُيورَ البَلَدِ كلَّها تَعَوَّدَتْ أنْ تُنادِيَهُ بهٰذا اللَّقبِ .

ثُمَّ قال الشُّرْشوران : « كَيْفَ صِحَّتُكَ — فى هٰذا الصَّباحِ — يا عَمَّنا « ابْنَ دَأْيَةَ » ؟ »

فقال لهما : « لَيْسَتْ على ما يُرامُ (لَيْسَتْ كما أُحِبُّ وأشْتهى) يا عَزيزَىَّ . فقدْ رابَنى بَصَرى (لَقيتُ بهِ ما أَكْرَهُ) ؛ فَلا أَكادُ أُبْصِرُ شَيْئًا . فَخَبِّرانى : ماذا عِندكما مِن الأنباء الْجَديدةِ ؟ »

فقالا لَهُ : « أَلا تَعْرِفُ — يا عَمَّنا — أَنَّ العاصِفَةَ قد اقْتَلَعَتْ شجرةَ البَلُّوطِ العَجوزَ ، التى نُطْلِقُ عليها اسْمَ « جَبَّارَةِ الغابَةِ » ؟ »

فَذُعِرَ « المقْمَق » (خافَ) ، ووَقَفَ على إحْدى رِجْلَيْهِ ، وقال مَذهوشًا : « أَىَّ نَبَإٍ تَحْمِلان ؟ وَكَيْفَ تقولان ؟ أجبَّارةَ الْغابَةِ تَعْنيانِ ؟ كَيْفَ هَلَكَتْ ؟ لعلَّكما تُريدان أن تَعْبَثا (تَهْزَءا) بى ، وَتَضْحَكا مِنِّى ! »

فقال الشُّرْشوران : « كَلَّا ، كَلَّا — يا أَبا عَقْمَقٍ — ليس مُزاحًا ما تقول . إنها الحقيقةُ الرَّاهنةُ (الحاضِرَةُ الواقِعَةُ) الَّتى لا شَكَّ

فيها ، وقد جئْنا نسألُكَ : هَلْ تعرفُ قصَّةَ هٰذهِ الشجرةِ وَتاريخَها ؟ »

فقال « العَقْمَق » مُتألِّمًا مَحْزونًا : « قِصَّتَها وتاريخَها ؟ كيفَ أَجْهَلُهُما ؟ ومَن أعْرَفُ بهما مِنِّى وأَخْبَرُ ؟ أجَلْ (نَعَمْ) أعْرِفُهما على التَّحقيقِ . وَقدْ حدَّثتنى أُمِّى بهما — رَحمةُ الله عليها — أكثرَ من مرَّةٍ . . . مِسْكينَةٌ شجرةُ البلُّوط ! أَماتَتْ ؟ ها نَحْنُ أُولاءِ قدْ فَقَدْنا صَديقًا كريمًا ، عَزيزًا علينا أنْ نَفْقِدَهُ ! »

٤ — نَشْأَةُ الْجَبَّارَةِ

وجَثَمَ (قَعَدَ) الشُّرْشورانِ على حافَةِ العُشِّ ، ووَقف الْعَقْمَق ، ثمَّ قال مُتَحَسِّرًا مُتَفَجِّعًا :

« إلَيْكُما (خُذا) — يا عَزيزَىَّ — قِصَّةَ هٰذهِ الْجَبَّارَةِ الْعجوزِ : لَقَدْ حَدثَ ، مُنْذُ زَمنٍ بَعيدٍ : بعيدٍ جدًّا ، قبلَ أن تُولَدَ أشجارُ هٰذا البَلدِ كلِّهِ — الَّتى تَرَيانِها أمامَكُما — أنْ سَقطَتْ ثَمرَةٌ صغيرةٌ منْ شَجرةٍ كبيرةٍ هِىَ شَجرَةُ البَلُّوطِ ، التى كانَتْ تَعيشُ فى ذٰلِكُما الزَّمَنِ الْغابِرِ . وكانَ فى تِلْكُما الثَّمرَةِ طِفْلٌ صغيرٌ ، راقِدٌ فى مَهْدِهِ ، وَهوَ — فى مُسْتَهلِّ حَياتِهِ —

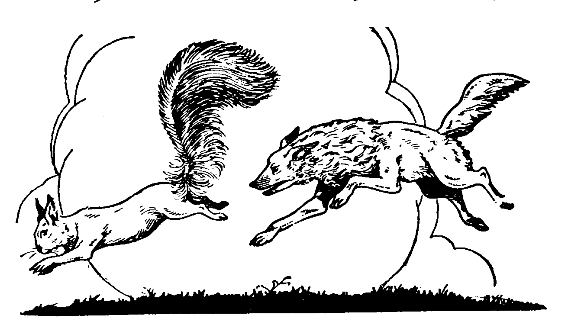
ضَعيفٌ لا قُوَّةَ لَهُ . وَلَم يَكُنْ ذٰلكما الْجَنينُ إلّا بَذْرَةً صغيرةً مِنْ نوْعِ الْبُذورِ الّتى تَرَبانها فى ثِمارِ الْبَلُّوطِ . ولَم يَكُنْ لِلْجَنينِ أُمْنِيَّةٌ أَشْهَى (أَحَبُّ) إلى نفسهِ منْ أنْ يعيشَ بِالْقُرْبِ من أُمِّه العزيزَةِ ، حَيْثُ يَحْيا فى أَمْنٍ وَدَعَةٍ (راحَةٍ وطُمَأْنينَةٍ) ، تَحْتَ أَغْصانها الكَثيفةِ . وَلٰكِنْ يُريدُ الْمَخْلوقُ أَمْرًا ، ويُريدُ اللهُ — سُبْحانَهُ — أَمرًا آخرَ . وَلا مَرَدَّ لِمَشيئةِ الْخالقِ الْمُدَبِّرِ القَوِىِّ العزيزِ . سَقطَتِ الثمرَةُ على الأرْضِ — كما حَدَّثْتُكما — فَهلْ تَعلمانِ ماذا حدَثَ ؟

لقَدْ آلَمَتْها السَّقْطةُ ، وَأَذْهَلها (أَنْساها) الألَمُ ، حتى كادَتْ تَفْقِد رُشْدَها . وَإنها لَتُعانى (تُقاسِى) أَلَم السُّقُوطِ ، إذْ بَصُرَ بها سِنْجابٌ ، فانقَضَّ عليها لِيأكلَها . فانْزَعَجَ الْبَلُّوطِىُّ الْجَنينُ ، واشْتَدَّ خوْفُهُ ، وأَيْقَنَ أنهُ — لا مَحالةَ — هالكٌ . ولٰكِنَّ اللهَ — سُبحانهُ — كتبَ لهُ السَّلامةَ منَ الْهلاكِ ، وَقيَّضَ (هيَّأَ) لهُ الفرَجَ ، وَبدَّلَ يأْسَهُ رجاءً .

أَتَعرِفانِ كيفَ نَجا الجَنينُ ؟

لَقدْ سمِعَ عُواءً عالياً : « عَوْ ! عَوْ ! » ، فأىَّ صوْتٍ سمِعَ ؟ إنهُ

عُواءِ الْكَلْبِ . فلقدْ نَشِطَ « ابنُ وازِع » — وَهُوَ كَلْبٌ كان يعيشُ قَرِيباً مِنْ هٰذِهِ الْمِنْطَقَةِ — فراحَ يَجْرِى مُسرعاً ، وَهُوَ يَعْوِى خَلْفَ السِّنْجابِ ؛ لِيَلْحَقَ بِهِ وَيَفْتَرِسَهُ . فارْتعدَتْ فَرائصُ السِّنجابِ (الفرائصُ



جَمْعُ : فريصةٍ ، وَهِى لَحْمةٌ — بين الْجَنْبِ والكَتِف — تهتزُّ عندَ ما يكونُ الْخَوْفُ) .

وَسُرْعانَ ما أَلْقَى السِّنجابُ ثَمَرَةَ البلُّوطِ الصغيرةَ ، وَلجَأَ إلى الفِرار حتَّى لا يفتِكَ بِهِ « ابنُ وازِعٍ » (لكىْ لا يفْتَرِسَهُ الْكَلْبُ) .

٥ – مَوْطِنُ الشَّحارِيرِ

وَلَبِثَ البَلُّوطِىُّ الجَنِينُ – مُنْذُ ذٰلِكُما الحِينِ – باقيًا عِنْدَ حافَةِ دَوْحَةٍ كبيرةٍ ، هى شَجرةٌ عظيمةٌ متَّسِمَةٌ ، عَلَى مقْرَبةٍ منْ سِياجٍ كبيرٍ منْ أشجارِ البُنْدُقِ . وَظلَّ فى مَهْدِهِ راقِدًا مُسْتسلِمًا لنومٍ عميقٍ – طَوَالَ الشِّتاءِ – تَحْتَ الْحَشائشِ اليابِسَةِ التى يُغَطِّيها الجليدُ فى ذٰلِكُما الفصْلِ .

وكانَتِ الشَّحارِيرُ تَغْشَى هٰذا المَكان ، وتَخْتَلِفُ إليهِ ، وَتُؤْثِرُهُ (تَخْتارُهُ) عَلَى غيرِه – من أنحاءِ الأجَمَةِ – وَتَلْتَقِى عندهُ ، لِتَتَناقَلَ أسْمارَها (أحاديثَها الجميلةَ) ؛ فأَطْلَقَ عليهِ الناسُ اسمَ « أجَمَةِ الشَّحارِيرِ ».

٦ – يَقَظَةُ الطِّفْلِ

وَلَمَّا جاءَ الرَّبيعُ التَّالى ، اسْتَيْقَظَتْ بَذْرَةُ البلُّوط من سُباتِها (من نَوْمِها العميق) . فأَحسَّت جُوعًا شَدِيدًا ، واشْتَهَتْ نَفْسُها الطَّعامَ . فلم يُلَبِّ طَلَبَها أحدٌ . . . وَمَنْ لها بِأُمِّها الَّتى تُعْنَى (تَهْتَمُّ) بها ، وَتُلَبِّى رَغَباتِها ؟

لقد نَشأَ هٰذا الطِّفلُ النَّباتِيُّ – كما حَدَّثْتُكما – بعيدًا عن أُمِّهِ. وقد شَعَر بوَحْدَتِهِ وَضَعفه؛ فَحزِنَ لِذٰلكما، واشْتَدَّ أَلَمُهُ. وَلَو اسْتَطاعَ الْبُكاء لَبَكى، كما يَبْكى الطِّفْل الحيوانيُّ. ولٰكِنَّهُ ذَكَرَ – بَغْتَةً – أَنَّ أُمَّهُ وَضَعَتْ فى مَهْدِهِ، قبل أن يُفارِقَها، وسادَتَيْنِ (مِخَدَّتَيْنِ) صغيرتين مَمْلُوءَتَيْنِ بطعامهِ، وهو أَشْبَهُ شيء بالدَّقيق. وقد تحَوَّلَ هٰذا الطَّعامُ – تَحْتَ الأَرْض الرَّطْبَةِ – عَجينَةً. فلمَّا طَعِمَها (ذاقَها) الطِّفل الْبَلُّوطِيُّ، استساغَها (اسْتَطْعَمَها)، وَهَشَّ لها (ارْتاحَ وابْتَهَجَ). ثمَّ أَقبل عَلَى الطَّعام – فى شَرَهٍ عَجيبٍ – حتَّى نَما جسمهُ، وَكَبِرَ جِرْمُهُ (حَجْمُهُ)؛ فضاقَ به مَهْدُهُ. وشعر الطِّفلُ بضيق هٰذا السَّرير؛ فَتَسَلَّلَ من بين هاتين الْوِسادَتَيْنِ، بعد أن أَكلَ ما تَحْوِيانهِ – من الْغِذاء – ولم يُبقِ مِنْهُ شيئًا يُذْكَرُ.

ولَمَّا وصل إلى عالَمِ الأَرض، تَنَفَّسَ الصُّعَداء (تَنَفَّسَ طويلًا)، وابْتَهَجَ وشعر بفرَحٍ لا مَثِيلَ لهُ.

ثم تَحَوَّلَ – بعد قليلٍ – إلى ماذا؟ أَلا تَعْرِفانِ؟ تحوَّل إلى جَذْرٍ (أَصْلٍ) صغيرٍ، كما تتحوَّلُ بُذورُ النَّباتِ كلُّها. وشَقَّ لنفسهِ

طَرِيقاً مُسْتَقِيمَةً عَمُودِيَّةً فى جَوْفِ الأرض !

وما زال الطِّفل الصَّغيرُ يَرْتوى بالْماء ، ويَتَغَذَّى بمصير الأرض — وقد استَغْنَى عن الْعَجِينةِ الأُولى التى حدَّثْتُكما عنها — ثم لم يَلْبَثْ أن أصْبَحَ غُلاماً . ولٰكنَّ الضَّجَرَ لازَمَهُ ، لِوَحْدَتِهِ ووَحشتِهِ . وَما أجْدرَهُ بذٰلكما ؛ فإنَّ العُزْلَةَ تُسْئِمُ وتُضجِرُ . فَلا تَعْجَبا إذا أخْبَرْتُكما أنَّهُ كان يَتنَهَّدُ ويتحسَّرُ — طولَ النَّهار — وهو يقولُ لنفسهِ :

« آهٍ ! مَن لى بأنْ أخْرُجَ من هٰذا السِّجن الضَّيِّق ، إلى ظاهرِ الأرض ، لِأرى جمالَ الدُّنيا ! ولعلِّى أظفَرُ — إذا تَمَّ لى هٰذا — بأصدقاء خُلصاء يُبادلُوننى الحُبَّ والوَلاء . »

٧ — فى عالَم الضَّوْء

وَكانَ الطفلُ البَلُّوطِىُّ صَبوراً شُجاعاً : شأنُ أطفالِ البلُّوطِ جميعاً . فظلَّ صاحِبُنا يدفعُ رَأسهُ — بكلِّ ما أُوتِيَهُ مِنْ قُوَّةٍ — لِيرْفعَ سَقْفَ هٰذا السِّجْنِ ، حَتَّى أدْرَكَ أُمْنِيَّتَهُ ، وَظفِرَ بِطَلْبَتِهِ (فازَ بمَطلَبهِ) .

وَثَمَّةَ أصْبحَ فى عالَم الضَّوْء — بعدَ أنْ طالَ احْتباسُهُ فى عالَم الظَّلام —

فابتهج لهذا ، واشتدَّ فرَحُهُ ، وتملَّكهُ الزَّهْوُ (استولى عَلَى نفسه الإعجابُ) ؛ فظلَّ يهتزُّ — يَمْنةً وَيَسْرةً — وَهُوَ فَرْحانُ بساقهِ الْجميل ، وورقتيْهِ الخضراويْنِ . وَكانَ الطفلُ البلُّوطيُّ جديرًا بهذا الزَّهْوِ : فقدْ أُعجِبَ بهِ كلُّ مَنْ رآه .



وَأَقبلَتْ عليهِ فَراشةٌ جَميلةٌ ، تُحَيِّيه وتَطيرُ حوْلَهُ فرحةً مَسرورةً ، وابتَسَمتْ لهُ شقائقُ النُّعمانِ البيضاء ، وَحيَّتْهُ تحيَّة الإعْجابِ .

وَجاءتْ جَرادَةٌ تُرَفْرِفُ عليه بِجَناحِها ، وَتُرحِّبُ بِمَقْدَمِه . ولمْ

يُنَغِّصْ عليه صَفْوَهُ إلَّا دُوَيبَّةُ الحلزونِ ، تِلكما الدُّوَيبَّةُ (الدَّابَّة الصغيرةُ) البغيضةُ إلى نفسه ؛ لِأنها كانَتْ — لِسُوءِ أدَبِها — تَمَسُّهُ بِقَرْنَيها ؛ فَيُؤْلِمُهُ مَسُّها ، وَيَكْرُبُه (يَسُوءُهُ) لَمسُها .

فإذا أقبلَ المَساء ، جاءَتْ دُودةٌ زاحِفَةٌ منْ خِلالِ الحَشائشِ ، حتى إذا اقترَبتْ منَ الغُلامِ البَلُّوطيّ ، فرِحَتْ بِرُؤْيتِهِ ، وَقالتْ فى نفسِها مُبتهِجَةً : « ما ألَذَّهُ عَشاء ، وَما أشهاهُ طَعامًا ! »

ثمَّ تُسْرِعُ الدُّودَةُ إلى نَباتِ البَلُّوطِ ، وَقدْ فرِحَتْ باهتدائها إلى هٰذا العَشاء الفاخِرِ ، وَتَصْعدُ إلى ساقِهِ مُتَسَلِّقَةً فى خِفَّةٍ وَرَشاقةٍ . وَلا تَزالُ تَقرِضُ أطْرافَ أوْراقِهِ وَتقْضَمُها (تأكلُها بأطرافِ أسنانِها) ، وَهُوَ يَرْتَجِفُ منَ الألم ، وَيَذكُرُ أنَّ أُمَّهُ كانتْ تُحَدِّثُه — وهو علَى غُصْنِها — أنَّ النَّباتَ مُحْتاجٌ إلى الأوْراقِ ، لِيَتَنَفَّسَ منها . وثَمَّ يَشْتَدُّ بِهِ الألَمُ ، وَيُبَرِّحُ بِهِ (يُؤْذِيهِ) الحُزْنُ ؛ حتى لَيَوَدُّ لوْ أُتيحَ (لَوْ تَهَيَّأ) له أنْ يَعودَ إلى جَوْفِ الأرْضِ ثانيةً ، فلا يُعَرِّضَ نفسَهُ لِمثْلِ هٰذه الأذِيَّةِ . وَلا تَزالُ الدُّودَةُ دائبةً على قَرضِ الوَرَقةِ الخَضْراء الجَميلةِ ، حتَّى تَأْتِيَ عَليها (تأكلَها كلَّها)

٨ – حارِسُ النَّباتِ

ثُمَّ يَسْمعُ الغلامُ البلُّوطىُّ خَفْقَ أجْنِحَةٍ تقْتَرِبُ منهُ فَجْأَةً ، ثُمَّ تَضْرِبُ رَأْسَهُ ضرْبةً قويَّةً ؛ فَتُذْهِلُهُ (تُنْسيهِ)، وَتُرَنِّحُهُ (تُضْعِفُه) . وَلا يتعرَّفُ جَلِيَّةَ الأمْرِ ، حتى يُبْصرَ طائرًا يَطِيرُ ، وفى مِنقارِهِ الدُّودَةُ الباغِيَةُ (الظَّالِمةُ) الَّتى اعْتَدَتْ على أوْراقِهِ . فيَشْكُرُ لهُ صاحِبُنا الغلامُ البلُّوطىُّ هٰذهِ اليَدَ (الحَسَنَةَ وَالفَضْلَ) ، وَلا يَنْسَى لهُ الجميلَ . وَلا يَزالُ الصغيرُ البلُّوطىُّ يُحَيِّيهِ وَيَشْكُرُ لهُ صَنيعَهُ (معْرُوفَهُ) ، وَهُوَ يقولُ :

لقد نَجَوْتُ مِنَ الهلاكِ بِأعْجُوبةٍ خارِقَةٍ (غيرِ عاديَّةٍ) . فيالَيْتَ شِعْرِى (لَيْتَنِى أعْلَمُ) كيف يكونُ مَصيرِى لَوْ فَقَدْتُ هٰذا الطَّائِرَ الحارِسَ الكريمَ ، الَّذِى يَحْمِى أوْراقى مِنَ التَّلَفِ ؟ »

٩ – أسرة البلُّوط

كانَ « ابْنُ دَأْيَةَ » يَقُصُّ هٰذا التَّارِيخَ العَجيبَ الحافلَ (المَمْلوء بالحوادِثِ) ، عَلَى « أَبِى بَراقِش » وَ « أُمِّ شَرْشَرَةَ » ، وَهُما شَديدا

الإعجابِ بما يَسْمَعانِ . وَلَمْ تَفُتْهُما كَلِمَةٌ واحِدَةٌ مِنْ هٰذِهِ القصَّةِ الطَّرِيفَةِ . فلَمَّا وَصَلَ « ابْنُ دَأْيَةَ » فى حديثِهِ إلى هٰذا الْحَدِّ ، صَمَتَ (سَكَتَ) قَليلًا لِيَسْتَرِيحَ . ثم اسْتَأْنَفَ (عادَ يتَكلَّمُ) ناعِبًا (مُصَوِّتًا) ، يَقُولُ : « مَرَّ عَلَى هٰذا الحادِثِ — أَيُّها الْعَزِيزانِ — سِنُونَ عِدَّةٌ (سَنَواتٌ كثيرةٌ) ؛ فَقَوِىَ نَبْتُ البَلُّوطِ ، ولَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَصْبَحَ شَجَرةً كبيرةً جَميلةً ، ذاتَ جِذْعٍ (ساقٍ) مَتِينٍ ، وَأَوْراقٍ كثيفَةٍ ، ظِلالُها وارِفَةٌ (واسِعَةٌ) . وَصارَ الطِّفْلُ الصَّغِيرُ الضَّعِيفُ أُمًّا شَديدةَ القُوَى ، أَنْجَبَتْ (وَلَدَتْ أَبْناءً نُجَباءَ) ؛ فَصارَتْ لها أُسْرَةٌ كبيرةُ العَدَدِ مِنْ شُجَيْراتِ البَلوطِ الصَّغيرة .

وَكانَتِ الْأُمُّ البَلُّوطِيَّةُ كثيرةَ الحَنانِ (عظيمةَ الرَّحْمَةِ) ، شَديدةَ العَطْفِ عَلَى أَبْنائِها ، تَبْسُطُ ذِراعَيْها عليهم ، لِتَحْمِيَهُمْ خَطَرَ العاصِفةِ إذا هَبَّتْ وَعَنُفَتْ (اشتَدَّتْ) ، حَتَّى لا يُصيبَهُمْ أَىُّ سُوءٍ .

وكانَتِ الشُّجَيْراتُ مُمْتَلِئَةً قُوَّةً وَصَلابةً . وَلا غَرْوَ (لا عَجَبَ) ، فقد كانت شديدةَ النَّهَمِ (كثيرةَ الْحِرْصِ عَلَى الْأَكْلِ) . وقد تَكاثَرَ عَدَدُها — عَلَى مَرِّ الأيامِ — حتى تَأَلَّفَ مِنْها أَجَمَةٌ مَمْلوءةٌ بِشَجَرِ البَلوط الجميل . وَصارتِ الطُّيُورُ تَفِدُ (تَقْدَمُ) عليها وَتَجِىءُ إليها ، من جميع

أنحاء الجَوِّ — مِنَ الصَّباحِ إلى المَساء — وَتَبْهَجُ الغابَةَ (تَسُرُّها) بِأَغارِيدِها (أَغانيها) الجميلةِ ، وَأَصْواتِها العَذْبَةِ .

وفى ذاتِ يَوْمٍ — مِنْ أيامِ شَهْرِ مايو — قالتِ البَلُّوطَةُ لأبنائها الشُّجَيْراتِ الصَّغيرةِ :

« لقَدْ حانَ وَقْتُ ازْدِهارِكُمْ (جاءَ زمَنُ إشراقِ حُسْنِكُمْ) ونُمُوِّكُمْ ؛ فأَقْبِلوا عَلَى الغِذاءِ — فى نَهَمٍ — لِيَتِمَّ نَماؤُكُمْ ، وَتَكْثُرَ ثمراتُكُمُ التى يَنْبُتُ — مِنْ بُذورِها — أبناؤُكُمْ . »

ثم استأنَفَتِ البَلُّوطَةُ قائلةً :

« وافَرْحتاهُ إذا تَمَّتْ لِى هٰذِهِ الأُمنيَّةُ ؛ فإنِّى أُصْبِحُ — حينئذٍ — جَدَّةً ، بَعْد أن أصْبَحْتُ أُمًّا ! »

• • •

وَظَلَّتِ الأَجَمَةُ سَعِيدَةً بِهٰذِهِ الأُسرةِ ، وَكانتْ شُجَيْراتُ البَلُّوط دائمةَ الابتِهاجِ والمَرَحِ ، تَقْضِى أَكْثَرَ أوقاتِها فى أحاديثَ وأسمارٍ طَرِيفَةٍ ، وَتهُزُّ رُءوسَها مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ ؛ فتُذْعَرُ (تَتَفَزَّعُ) أفراخُ

الطُّيور (أبناؤها الصَّغيرةُ) ، وَلا تَجْرُؤُ على أن تَنامَ بَيْنَ أغْصانِها ، فتَضْطَرُّ إلى الرُّقاد فى أماكنَ أخرى .

١٠ — مصارعُ البلُّوط

ولٰكنَّ السُّرورَ لا يدومُ طويلًا فى هٰذا العالَمِ : عالمِ النَّباتِ جَميعاً . فما أسرعَ وُفُودَ الحطَّابينَ — فى فَجْرِ الأيَّامِ المُتَقارِبَةِ — على الغابَةِ ، حيث يَذْعَرُونَ الطَّيرَ والدَّوابَّ ، وَيُنَغِّصُونَ (يُكَدِّرونَ) عليها صَفاءها ، وَيطْرُدُونَ نومَها الهادِئَ ؛ فتَهْرُبُ الطَّيرُ والسناجيبُ ، وهى تَنْدُبُ سُوءَ حظِّها ، وَتَرْتَجِفُ شُجَيْراتُ البلُّوط ، كلَّما سَمِعَتْ رَنينَ الفُئُوسِ الثَّقيلَةِ فى الجُذوع الصغيرة النَّاشئَةِ .

ولا يزالُ النَّاسُ يَحْتَطِبُونَ (يَقطَعُونَ الحَطب) حتى يأْتِيَ المساءُ . ولقد لَقِيَتْ كثيرٌ من شُجيرات البَلُّوط مصارِعَها ، وانْطَرَحتْ على الأَرض مَيِّتةً لا حياةَ فيها .

فتَحْزَنُ أمُّ البلُّوط لِهَلاك بناتِها ، وتأْلَمُ — لفراقهنَّ — أشَدَّ الأَلَمِ . ثم لا يَلْبَثُ بَدْرُ السَّماء الجميلُ أن يَسْطَعَ فوقَ ذِرْوَةِ الجَبلِ (قِمَّتِهِ



وأعلى مكانٍ فيه) ؛ فتقولُ له الأمُّ الحزينةُ :

« خبِّرْنى أيُّها البدرُ المُنيرُ . حدِّثْنى أيُّها الصَّديقُ الكريمُ : لماذا يَقتُلُ النَّاسُ أولادِىَ الأعِزَّاء ؟ »

فلا تُتِمُّ قولَها ، حتى تعترضَ سَحابةٌ ضَوءَ القمرِ ؛ فلا تَسْمعُ البلُّوطَةُ – لِسُؤَالها – رَدًّا . ثمَّ لا تَلبَثُ النُّجُومُ أنْ تَظْهرَ فى السماء ، حيثُ تتلألأُ آلافٌ من المَصابيح السماويَّةِ الصغيرةِ البَديعةِ .

• • •

فتقولُ لها شَجَرَةُ البلُّوط مُستَفْسِرَةً :

« برَبِّكِ خبِّرِينى ، يا نُجُومَ السَّماء . بِرَبِّك لا تَكْتُمِى الحقيقةَ عَنِّى ، أيتها الصَّديقاتُ العزيزات . حدِّثِينى : ما الَّذِى أغْضَبَ النَّاسَ مِنِّى ، أيتها الكواكبُ اللَّامِعاتُ ؟ لماذا اقْتَحَمُوا عَلَىَّ غابَتِى ، وراحُوا يَعْتَدُونَ على أهْلِى وعشيرَتِى ؟ لماذا قَتلُوا بنَاتِى ، أيتُها النُّجومُ المُؤْتَلِقات ؟ »

فَلا تُجيبُها الكواكبُ ، ولا تَرُدُّ عَلَيها النُّجُومُ !

ولا تَزالُ شَجَرَةُ البلُّوط ساهِدَةً مُؤَرَّقَةً (ساهِرَةً لا يَزُورُها النَّوْمُ) لِحُزْنِها على أبنائِها ، حَتَّى يطلُعَ الفَجْرُ ؛ فيَنْتابُها المَرَضُ ، وَيُحاوِلُ

أصْدِقاؤُها — مِنْ طُيُورِ الأجَمَةِ — أنْ يُهَوِّنُوا عليها ما تُكابدُهُ من ألمٍ (ما تُقاسيهِ من وجَع) ؛ فَلا يَجِدُون إلى ذٰلكما سبيلًا .

١١ — عَزاء الشُّحْرور

فإذا اقتربَ زَمنُ الخريفِ اصْفارَّتْ أوْراقُها، وَتساقَطَتْ — واحدةً إثْرَ أُخرى — وَتَجوَّفَ جِذْعُها (صارَ ساقُها فارغًا) ، وأيْقَنَ الجميعُ أنَّ مَصْرَعها وشيكٌ ، وأصْبَحُوا يترقَّبون موتَها يومًا بعدَ يَوْمٍ .

وكانت البَلُّوطَةُ لا تَنِى (لا تُبْطِئُ) عن سؤالِ كلِّ مَن رأَتهُ :

« لِماذا قَتَلَ النَّاسُ أوْلادى ؟ »

فى ذاتِ يَوْمٍ مَرَّ بها شُحْرُورٌ شَيْخٌ ، فلَمَّا أَلْقَتْ عليـهِ هٰذا السؤالَ — وقد أَلْقَتْهُ على غيره أكثرَ من مِائَةِ مَرَّةٍ — قال لَها :

« لَمْ يَقْتُلِ النَّاسُ أولادَكِ انْتِقامًا منك ، كما تَظُنِّينَ ؛ فليس بينَهم وَبَيْنَكِ تِرَةٌ (ثأْرٌ) ولا عَداوَةٌ . إنَّما أَهْلَكَ النَّاسُ أبْناءَكِ ، لأنَّهُمْ فى حاجةٍ إليهم ؛ فَهُمْ يتدفَّئُونَ بأجسامهم الْخَشبيةِ ، ولا يَسْتَغْنُونَ عن حَطَبِهِمْ ، كما أنَّهُمْ يَسْتَعِينُون بِقِشْرِهِم فى صُنع نِعالِهِمْ . وحَسْبُكِ

(يكْفيك) أنْ يكونَ أولادُك نافعينَ ؛ فَلَيْسَ أبهجَ للنَّفْسِ من أن تشعُرَ بأنَّها أدَّتْ قِسْطَها (قامَتْ بنصيبها) من خِدْمَةِ النَّاسِ ! »

فابتهجت شجرةُ البلُّوط ، وسُرِّيَ عنهـا (خَفَّ ألَمُها) ، حِينَ سَمِعتْ كلامَ الشُّحْرُور ، وتعزَّتْ (تَصَبَّرَت) عن فَقْدِ بناتِها العزيزات.

ثم جاء الرَّبيعُ ، فأخَذتْ شجرةُ البلُّوط زينتَها ، واسْتَعادَتْ بَهْجَتَها . ولم يَحُلَّ الخريفُ ، حتَّى أصْبَحَتْ أغصانُها مُحَمَّلَةً بزهَراتٍ جَميلَةٍ بَرَّاقَةٍ . »

١٢ – العُشُّ الصَّغيرُ

وَهنا قالَتْ « أُمُّ شَرْشَرَةَ » لِ« ابن دَأْيَةَ »

« مَعْذِرةً – يا ابنَ دَأْيَةَ – إذا قَطَعْتُ عليك حديثَك المُمْتِعَ ؛ فقد ذكرتُ الآن شيئًا مُهِمًّا أُريدُ أن تُفَسِّرَهُ لى . »

فقال لها « المَقْمَقُ » : « سَلِي ما تَشائِينَ . »

فقالت « أُمُّ شَرْشَرَةَ » :

« لقدْ رأيتُ كُراتٍ حُمْرًا عَلَى ورقِ البلُّوط ؛ فلَمْ أدرِ : أىُّ شَىْءٍ هِىَ ؟

كان ذٰلكَ فى الصَّيف الْماضى إبَّانَ (حِينَ) تَغيُّبِ زَوْجى « أبى بَراقش » ؛ فَذَهبْتُ لزيارة إحْدى صديقاتى من العصافيرِ ، وَظَلِلْنا نَمْرَحُ ونلْعبُ معًا لُعْبَةَ الِاستخفاء — بين أغصان شجرةِ البلُّوط — فَلمَحْتُ الـكُرات الْحُمْرَ . وقدْ أعجبنى لوْنُها البديعُ الْقانِى (الشديدُ الْحُمْرَةِ) ؛ فقلتُ فى نَفْسى : لعلّها « كَرَزٌ » . ثم أسرَعْتُ إليها ، فنقرتُها ، وهمَمْتُ بأكلها . وما تَذَوَّقتُها حتى وَجدْتُ لها طَعْمًا مُرًّا لَذَّاعًا ، كادَ — لمَرارَتِهِ ولَذْعه — يُحْرِقُ لِسانى ، وخُيِّـلَ إلَيَّ أنّنى تَذَوَّقْتُ سَمًّا قاتِلًا ! » فقالَ « ابْنُ دَأْيَةَ » ، وهُوَ يَهزُّ رَأْسَهُ ساخِرًا :

« ما أعْجَبَ شَرَهَكِ ، وأشدَّ بلاهَتَكِ ، يا ابنَةَ أخى الطائشَةَ ! كيف دارَ بخَلَدِكِ (كيف مَرَّ بخاطِرِكِ) أنها « كَرَزٌ » ؟ وهلْ يَنْبُتُ الـكرَزُ فى شَجر البلُّوطِ ؟ فـكيْفَ تَحْـكُمينَ ، يا عَزيزَتى ؟

إنَّ هٰذهِ الـكُرَةَ لَيْسَتْ إلّا عُشًّا صَغيرًا . »

فصاحَتْ « أمُّ شَرْشَرَةَ » مَدْهوشَةً :

« آه ! كلَّا — يا عَمِّى — فَليْسَ فى الإمكانِ أنْ تكونَ عُشًّا ! »

فقالَ لها « العَقْعَقُ » : « بل كانَتْ عُشًّا ، بِلا رَيْبٍ . وكانَ يَرْقُدُ

فيها طِفْلٌ صغيرٌ . ولو أنَّكِ أنعمْتِ النَّظرَ ، لَرَأيْتِ — في ذٰلكِ العُشِّ الصَّغيرِ — دُودَةً مِنْ تلكِ الديدانِ التي تَبْحَثِينَ عنها مُجِدَّةً جاهِدَةً . »

فقالتْ « أُمُّ شَرْشَرَةَ » : « وا أَسَفاهُ على ضياعِ تلكَ الفُرْصةِ الثمينةِ ! لقــد فَوَّتُّها على نَفْسى بجَهْلِى وغَباوَتى . وليْتَنى عَرَفْتُها ، إذَنْ لَنَعِمْتُ بذٰلكَ الطَّعامِ الفاخرِ اللذيذِ ! »

ثم استأنَفَ « المَقْمَقُ » حَديثَهُ قائلًا :

« إنِّى مُحَدِّثُكِ — يا أُمَّ شَرْشَرَةَ — عَنْ فائِدَةِ هٰذهِ الكُراتِ التى يُسَمُّونَها اسمًا نَسِيتُهُ . . . وا أَسَفاهُ يا عزيزَتى ، فإنِّى أَجِدُنى قد فقدْتُ الذَّاكِرَةَ بلا رَيْبٍ ! »

١٣ — قِصَّةُ « صادقٍ »

فهمَسَ « أبو براقِشَ » فى أُذُنِ « المقمَقِ » :

« صَهٍ ، أيها العمُّ الكَريمُ . حَذارِ أَنْ تتكلَّمَ ؛ فإنِّى أرَى شَخصًا يَمُرُّ فى الطَّريقِ ، وهُوَ — فيما يَلُوحُ لِى — شَيْخٌ مُقَوَّسُ الظَّهرِ ، يَحملُ عَلَى ظَهْرِه قفَصًا . »

ثُمَّ جلَسَ على أحدِ أغصانها العاليةِ ، وَضَمَّ ساقًا إلى ساقٍ ، وَظَلَّ يَرْتَجِحُ (يَميلُ يمينًا وَيسارًا ، كأنهُ فى أُرْجُوحَةٍ) مَسرورًا ، وَيصيحُ مُبتهجًا :

« أنتَ جَوادِى وَأنا الْحـادِى
لَيْسَ لِمِثْـلى مِنْ أنْدادِ
غَـيْرُ شَقيقِى عبدِ الهـادِى
ما أنْجَبْنـا فى الأَوْلادِ
ما أَمْجَـدَنا فى الأَمجـاد

• • •

كَمْ أرْغَمْنـا مِنْ حُسَّـادِ
وترَأَّسْنـا حَشْدَ النَّـادِى
أنتَ جَوادِى وَأنا الحـادِى
حـادٍ بادٍ فى بغـدادِ . »

وَظلَّ يُغنِّى هٰـذه الأُغْنِيَّةَ الجميلةَ ، وَلم يدْرِ ما يَخْبَؤُهُ لهُ القَدَرُ .
ثمَّ كُسِرَ الْغُصْنُ — فَجْأَةً — وَهَوَى (سَقَط) « صادقٌ » إلى الأرض ،

فقالَ « الْمَقْمَقُ » ،وقد عَرَفهُ من سَمْتِه (هَيئته) وَمِشْيَتِهِ :

« ألا تَعْرِفانِ هذا الشَّيْخَ ؟ كلَّا ! ما أظُنُّكما تَعرِفانِهِ ؛ فإنكما لا تزالانِ صَغيرَيْنِ . لقَدْ كانَ هذا الشيخُ الهرِمُ من أصْدقاء « جَبَّارَةِ الغابَةِ » ، مُنذُ زَمنٍ طويلٍ .

وقدْ عرَفتُ أنَّ اسْمَهُ « صادِقٌ » . وكان يَخْتلفُ إلى « جَبَّارَةِ الغابَةِ » في زمنِ طفولتهِ ، ويَلْهُو – ما شاء أن يَلْهُوَ – في أجَمَتِنا . ثمَّ وَقعَ لهُ حادِثٌ مُفَزِّعٌ مُؤْلِمٌ ؛ فَلم أرهُ منذُ هذَا الحِين ...

إنَّها قصَّةٌ قديمةُ العهْدِ . »

فَقَالَ الشُّرْشوران :

« ليتَكَ تَقُصُّها علينا – يا أبا المقْمَقِ – فإننا شديدا الشَّغَفِ بسَماع القِصَص . »

فقال « المَقمقُ » :

« لَكُما ما تُريدانِ يا ولَدَيَّ ، وإنِّي قاصٌّ عليكُما حَديثهُ المُحْزِنَ :

لَقدْ تسلَّقَ هذا الشيْخُ – وَكان حينئذٍ صَبِيًّا – جِذْعَ الدَّوْحَةِ الْجَبَّارةِ الهائلَةِ حتى بلغَ قِمَّتَها .



وَأصبحَ فى حالٍ يُرْثَى لها (تَسْتدعِى الشفَقةَ) .

وَقدْ حَزِنتْ طُيورُ الْغابةِ لمُصابهِ ، وَتألَّمتْ لِألمهِ ؛ لأنها كانتْ تُحبُه وَتأْنَسُ بهِ . وما أجدرَه بحبها ؛ فقدْ كانَ غُلامًا طيِّبَ القلبِ ، لا يدَّخِرُ وُسْعًا فى إسْعادِ الطُّيورِ وَبرِّها ، وَتقديمِ فُتاتِ الْخُبْزِ إليْها فى الشِّتاء ، وَلم يكُنْ يَمَسُّ أوْكارَها (أعْشاشَها) بِسوءٍ .

ثم عادَ الصَّبىُّ التَّاعِسُ إلى بَيْتهِ أعْرَجَ ، لا يَمْشِى إلَّا بِشقِّ النَّفْسِ (بِتَعَبها وَمَشقَّتِها) ، وَلَمْ يَعُدْ إلى شجرَةِ البلُّوطِ فى اليومِ التَّالى .

فَحَزِنَتِ الطَّيرُ ، وَاستَوْحَشَتْ لِغَيْبتِهِ ، وَكَفَّتْ عَنِ التَّغْريدِ أسْبوعًا كامِلًا .

وكانَتِ الأَطْيارُ تُخْرِجُ رُءوسَها مِنْ بَيْنِ أجْنِحَتِها فى الْمَساء وتَنْدُبُهُ ، مُتَحَسِّرَةً عليهِ ؛ فَتُهَدِّئُها أُمَّاتُها ، وتُعَزِّيها فى مُصابِها بِفَقْدهِ .

ثم جاء بعدَ أيامٍ ، وَقَدْ شُفِيَ — بِفَضْلِ عِنايَةِ أُمِّهِ — واسْتَعادَ نشاطَهُ وَصِحَّتَهُ . فابْتَهَجَتِ الطيورُ بِمَقْدَمِهِ (فَرِحَتْ بِقُدُومِهِ)، وَغَرَّدَت (غَنَّتْ) ، وحَمِدَتِ الله على شِفائهِ . »

١٤ – آلامُ الشيخوخةِ

ثم صَمتَ (سَكَتَ) « العَقْعَقُ » . وَظَلَّتْ « أُمُّ شَرْشَرَةَ » تَنْقُرُ صَدْرَها بِمِنقارِها . أَمَّا زَوْجُها ، فقد تَرَقْرَقَتْ دَمْعَةٌ فى عَيْنِهِ – مِنْ شِدَّةِ التَّأَثُّرِ – وَظَلَّ يَنْظُرُ إلى الشَّيْخ « صادِقٍ » حتى اخْتَفَى عَنْ عَيْنَيْهِ .

ثم قالَ « العَقْعَقُ » :

« واحَسْرتاهُ ! لَمْ يَبْقَ مِنْ قِصَّةِ هٰذهِ الْجَبّارَةِ إلا الْحَديثُ عَنْ ذِكْرَياتها الْمُؤْلِمَةِ فى أيامِها الأَخيرةِ . فقد مَرَّتِ السِّنونَ الْمُتَعاقِبَةُ (السنواتُ الْمُتَتابِعةُ) على الشجَرةِ الْهَرِمَةِ ، حتَّى أَجْهَدَتْها الشيخوخَةُ ، وأَصْبَحَتْ أَكْبَرَ شَجراتِ الأَجَمَةِ سِنًّا .

وَقَدْ كانَ جَدِّى ذَكِيًّا ، عارِفًا بالتـاريخ ، وَهُوَ يُؤَكِّدُ لَنا أَنَّ عُمْرَ شَجَرِ البلُّوطِ يَبْلغُ ثَمٰنمِائَةِ شِتاء

أَمَّا أنا ، فلا أَسْتَطيعُ أن أُمَثِّلَ لِنَفْسى (أَتَصَوَّرَ) مِثْلَ هٰذا العُمْرِ الطَّويلِ ؛ لِأَنَّ إدْراكى خَفيفٌ ، لا يَسْتَطيعُ أَنْ يتخيَّلَهُ .

وَمَهما يَكُنْ فى دُنْيانا – من أَمْرٍ – فإنَّ لِكلِّ بِدايةٍ نِهايةً

وَإِنَّ لِكُلِّ عُمْرٍ – مَهْما يَطُلْ – غايَةً ، وَلا بُدَّ لِكُلِّ مَوْلودٍ مِنَ الكائناتِ أَنْ يَمُوتَ . فلا عجَبَ إذا أَدْرَكَتِ الشيخوخَةُ جَبَّارَةَ الغابَةِ ، فأَضْجَرَتْها (مَلأَتْ نَفسَها غمًّا) ؛ لِأَنَّ جميعَ أَصْدِقائِها – مِنْ عَهْدِ الطُّفولَةِ – قد ماتُوا مُنْذُ زَمَنٍ طَويلٍ ، وَلَيْسَ آلَمَ للنَّفْسِ مِنْ فَقْدِ أَصدِقاءِ الطُّفولَةِ ، وَرُفَقاءِ الشَّبابِ !

١٥ – النَّقَّارُ الأخضرُ

وَلَمَّا جاءَ شَهْرُ نوفمبر ، واقْتَمَّتِ السماءُ (اسْوَدَّتْ وَأَظْلَمَتْ من الغُيوم) ، وَبَرَدَ الْجَوُّ ، أُتيحَ (تَهَيَّأَ) لِهٰذِهِ الشَّجرةِ العَجوزِ رَفيقٌ بارٌّ مُخْلِصٌ ؛ فظلَّ لها سميرًا ومُؤْنِسًا طُولَ حياتِها .

وكانَتْ شجرةُ البَلُّوط العَجوزُ – حينئذٍ – تتأهَّبُ لرُقادها (تَسْتَعِدُّ لِنَوْمِها) السَّنوىِّ الطَّويلِ الذى يَسْتَغْرِقُ الشَّهْرَ كلَّهُ . وَلٰكِنَّ ضَجَّةً مُدَوِّيَةً زَعْزَعَتْها مِنْ فَرْعِها إلى أَصْلِها (مِنْ أَعْلاها إلى أسفَلِها) . ولَمْ تَكُنِ الضجَّةُ العَنيفةُ إلَّا طَلَقًا نارِيًّا، خَرَجَ مِنْ بُنْدُقِيَّةِ صيَّادٍ يَجُوسُ (يَمْشى) خِلالَ الأَجَمَةِ ، وَخَلْفَهُ كَلْبُهُ .

وسَمِعَتْ شَجرةُ البلُّوط – حِينئذٍ – صَوْتَ صَفِيرٍ مُتَقَطِّعٍ يَنْبَعِثُ مِنْ نَقَّارٍ أخْضرَ ، يَرْتَعِدُ فزَعًا ، وَيُوشكُ أنْ يَهْلِكَ مِنَ الذُّعْرِ ؛ فقد كان النَّقَّارُ الأخْضَرُ يَئِنُّ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، وَيَقولُ :



« لَقَدْ هَلَكْتُ ، فما حِيلَتِى ؟ وَمَنْ لِى بالنَّجاةِ مِنْ مُطارَدَةِ الصَّيَّادِ ؟ وفى أىِّ مكانٍ أَسْتَخْفِى ؟ »

فقالَتْ لَهُ « جَبَّارةُ الغابَةِ » العجوزُ :

« إلَىَّ يا صديقِىَ النَّقَّارَ الأخْضرَ ، هَلُمَّ فانْزَوِ فى هٰذا الثَّقْبِ الذى تَرَاهُ بَيْنَ غُصْنَىَّ الكَبيرَيْنِ . »

فأسرعَ النَّقارُ الأخضرُ إلى الشَّجرةِ ، وخبأَ نفسَهُ فى المَخْبإِ الأمين .

ومرَّ به الصَّيادُ وكلبُهُ ، دون أن يفطُنا إلى مكانه . فلم ينْسَ النَّقارُ الأخضرُ – لشجرةِ البلُّوط – هذه اليدَ ، وشكر لها أن أنقذتْ حياتَهُ ، وفكَّر طَويلًا فى مكافأتِها عَلَى صَنيعِها . ثم هَداهُ تفكيرُه إلى الفَحْص عن جذْعها ؛ فرأى كثيرًا مِنَ الْحَشراتِ قـد تَجَمَّعتْ حوْلَ الجذعِ تأكلُه ، حتى نَخرَتْهُ (جَعلتْ فيهِ ثُقُوبًا وشُقوقًا) . فلمَّا رأى جذْعَها قد نَخِرَ (بَلِيَ وتفتَّتَ) وفَسَد ، آلَى (حَلَف) عَلَى نفسهِ أنْ يُبيدَها (يُهلِكها) جَميعًا . وظلَّ يلْتَهِمُ الحشراتِ ، دائبًا (مُواظِبًا) عَلَى مُطارَدتها فى كلِّ يومٍ ، مِن الصَّباحِ إلى المَساء .

وكانتْ أسرابُ الحشراتِ (جَماعاتُها) كلَّما رأتهُ ، هَمَّتْ بالفِرارِ . ولٰكنَّهُ كان يَمُدُّ لِسانَهُ إليها ، فَيَلْتَقِطُها – من فوْره – ويَرى فى هٰذِهِ الحشراتِ السَّمينة أشهَى غذاءٍ لهُ .

ولمَّا حَلَّ الشِّتاء ، لم يَشَإِ النَّقَّارُ الأخضرُ أن يتركَ صديقَتهُ العزيزةَ ؛ فَظَلَّ فى مَخْبَئِهِ بين أغصانها ، صابرًا عَلَى بَرْدِ الشِّتاءِ القارسِ ، وقد

ذهَب ريشُهُ ، ولَمْ يستطع الخروجَ طُولَ أيَّامِ هـٰذا الفصل ؛ فكانَ يَقْضِى ساعاتٍ طويلةً يتحدَّثُ فيهـا إلى صديقَتِهِ « جبّارةِ الغابَةِ » عن جَمال أيَّام الشَّبابِ . »

١٦ — خاتمةُ الْحديثِ

ثُمَّ صَمَتَ « الْعَقْعَقُ » عَنِ الْكلامِ ، ولَبِثَ الشُّرْشوران صامِتَيْنِ ، وظَلَّ ثَلاثَتُهُمْ يُفَكِّرونَ فى قِصَّةِ هـٰذهِ الشَّجرةِ الْعَجُوز ، التى لَقِيَتْ حَتْفَها (ماتَتْ) فى ذٰلكَ اليَوْمِ ، وارْتَمتْ عَلَى الْحَشائشِ الْمُخْضَرَّةِ .

ثُمَّ قالتْ « أُمُّ شَرْشَرَةَ » : « تُرَى : كَيْفَ كانَتْ خاتِمةُ النَّقَّارِ الأَخْضَرِ ؟ »

فقالَ « أبو براقِشَ » :

« لَعَلَّ الْعاصِفَةَ قدْ أَهْلَكَتْهما مَعًا ! »

فقالَ « ابْنُ دَأْيَةَ » : « لَسْتُ أَسْتَبْعِدُ ذٰلِكُما ، يا وَلدىَّ الْعزيزيْنِ ! فلا تَحْزَنا عليْهما ، فَكُلُّنا لِلْفَناءِ . »

مكتبة الكيلانى

مَجْمُوعاتُها : تُسايرُ التِّلْمِيذَ فِى نَحْوِ مِائَةٍ وَخَمْسِينَ قِصَّةً ، رائِعَةَ الصُّوَرِ ، بَدِيعَةَ الإِخْراجِ ، مُتَدَرِّجَةً بِهِ مِنْ رِياضِ الأَطْفالِ إِلَى خِتامِ التَّعْلِيمِ الثَّانَوِىِّ . ثُمَّ تُسْلِمُهُ إِلَى مَكْتَبَةِ الكِيلانِىِّ لِلشَّبابِ .

مادَّتُها : تُقَوِّمُ الْخُلُقَ ، وَتُرَبِّى الذِّهْنَ ، وَتُعَلِّمُ الأَدَبَ .

فَنُّها : يَشُوقُ الْقارِئَ وَيُمْتِعُهُ ، وَيُحَبِّبُ الْكِتابَ إِلَيْهِ .

لُغَتُها : تُنَمِّى مَلَكَةَ التَّعْبِيرِ ، وَتَطْبَعُ اللِّسانَ عَلَى فَصِيحِ الْبَيانِ .

ثَوْرَةٌ رَشِيدَةٌ ، أَجْمَعَ عَلَى تَأْيِيدِها وُزَراءُ الْمَعارِفِ وَزُعَماءُ التَّعْلِيمِ وَقادَةُ الرَّأْىِ فِى الشَّرْقِ ، وَكِبارُ الْمُسْتَشْرِقِينَ وَأَعْلامُ التَّرْبِيَةِ فِى الْغَرْبِ .

أَوَّلُ مَكْتَبَةٍ عَرَبِيَّةٍ عُنِيَتْ بِتَنْشِئَةِ الطِّفْلِ عَلَى أَحْدَثِ أُسُسِ التَّرْبِيَةِ الصَّحِيحَةِ . تَوالَتْ طَبَعاتُها الْعَرَبِيَّةُ ؛ فَتَثَقَّفَ بِها الْجِيلُ الْجَدِيدُ فِى بِلادِ الْعُرُوبَةِ ، وَلَمْ يَخْلُ مِنْها بَيْتٌ عَرَبِىٌّ .

تُرْجِمَتْ إِلَى أَكْثَرِ اللُّغاتِ الشَّرْقِيَّةِ وَبَعْضِ اللُّغاتِ الْغَرْبِيَّةِ .

مَدْرَسَةٌ حُرَّةٌ ، إِذا عَرَفَها التِّلْمِيذُ ، سَعَى إِلَيْها بِلا تَرْغِيبٍ وَلا تَرْهِيبٍ كانَتْ أَكْبَرَ أُمْنِيَّةٍ لِلآباءِ ، وَهِىَ الْيَوْمَ أَشْهَى غِذاءٍ ثَقافِىٍّ لِلأَبْناءِ .